الحب والصداقة
فى شعر أبى تمام

أبو تمام فى طليعة شعراء العربية النوادر المعدودين ، وأحد الشعراء الثلاثة الذين شغل النقاد القدامى بالمفاضلة بينهم والموازنة بين براعاتهم وعبقرياتهم ، والآخران هما البحترى والمتنبى ، وهو إمام أهل الصنعة غير مدافع ، يضربون على قالبه ، ويجرون فى غباره ، ويقتفون آثاره . وقد أخمل الكثيرين من شعراء عصره ، وتخرج عليه الكثيرون ممن جاءوا بعده ، ويمتاز شعره بعمق المعنى ، وبعد المأتى ، وإحكام النسج ، وبراعة الصنعة ، وقد لا يكون فى شعره جمال شعر البحترى وسلاسته ، ولا قوة المتنبى وحيويته ، ولكنه يفوقهما فى تجويد الصنعة وفحولة النظم ، حتى قال فيه البحترى على فرط إعجابه بنفسه : «جيده خير من جيدى ورديئى خير من رديئه» .

وبعض الشعراء قد يؤثر فينا شعرهم ، ويحرك عواطفنا ، ويلهب شعورنا ، ولكننا مع ذلك نشعر بأن عالمهم الفكرى جد محدود ، وأفقهم ضيق ، ونصيبهم من القوى العقلية غير موفور ، وهم مسجلو حالات نفسية تلم بهم على غير إرادتهم ، وليسوا من مشيدى صروح الشعر وبناة قصوره الشامخة ، وقوتهم مستمدة من الروح الشعرية التى تهيب بهم وتملى عليهم ، وكأنما هى قوة مقبلة من عالم مجهول ، وهم كالمزهر تحرك أوتاره أيدى العازفين ، والبوق ينفخ فيه النافخون ، وليس أبو تمام من هذا الطراز من الشعراء ، فهو رجل فن وصنعة لاينتظر حتى يتزل عليه الوحى ويسعى إليه ، وإنما يتوكفه ويستنزله ويأخذ له

عدته ، وهو لا يعتمد كثيراً على نفحات ما وراء الوعى ، وإنما يعتصر فكره اعتصاراً . ويعنّى نفسه ، ويكد خاطره ، وهو لا ينطلق فى الطريق المعبدة ، ولا يطير بأجنحة ، وإنما يعلو النجود ، ويهبط السفوح ، ويجوب الصخر ، ويحفر فى الأرض ، ففكره اليقظ الجوال أقوى من عاطفته ، وما يحصل عليه بعد بذل الجهد أكثر مما يجود به عليه الوحى ، ولست أجرد الرجل من أصالة الشاعرية ، فهو عندى شاعر مطبوع ، ما فى ذلك شك ، وله نفحات رائعة ، وإلهامات موقفه ، ولكن همته العالية الطامحة وإرادته القوية ، وملكاته العقلية الممتازة لم تكن تكتفى بالتعويل على الوحى ، وتلقين الطبع ، فهو شاعر كبير لا لأنه ولد شاعراً كبيراً فحسب ، بل لأنه أراد كذلك أن يغدو شاعراً كبيراً ، وانتوى ذلك ، وصمم عليه وأخذ به نفسه حتى استقام له الشعر ، واستتب له ملكه ، فهو مثل يضرب فى قوة الإرادة ، ومضاء العزم ، والمثابرة والدءوب ، والتوفر على دراسة الشعر ، والإحاطة بشوارده ، والشاعر فى أبى تمام هو الباحث الدارس ، والمستبصر المتأمل ، وليس الكاهن فى المعبد والمحراب ينطق بالأسرار المغلقة ، والأحاجى الغامضة ، ويستوقد الحماسة ، ويستثير الطلعة بغرائب تكهناته ، وعجائب ابتكاراته . وفى كتاب أخبار أبى تمام للصولى خير قصير له دلالته البعيدة . فقد دخل أبو تمام على أحمد بن أبى دؤاد المتكلم البارع وصاحب الشخصية اللامعة ، وكان عاتباً عليه فى شىء ، فاعتذر إليه أبو تمام ، وقال : «أنت الناس كلهم ولا طاقة لى بغضب جميع الناس» وكان ابن أبى دؤاد على ما يظهر يعرف مذهب أبى تمام فى تخريج الآراء ، واستنباط المعانى ، فقال له : «ما أحسن هذا ! فمن أين أخذته ؟» فقال أبو تمام من قول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وهكذا كانت طريقة أبى تمام ، فهو لا يرتجل القول ارتجالا ، ولا يرسله إرسالاً وإنما يقومه ويثقفه ، ويتخير المستجاد منه ليذيعه بعد ذلك على الناس ، وكان كثيراً ما يفخر بذلك فى شعره مثل قوله فى مدحه لمالك بن طوق :

خذها ابنة الفكر المهذب فى الدجى والليل أسود رقعة الجلباب

والشاعر الذى تعود أن يستثير ملكته الشعرية بالمهاز والسياط قد يجيد المديح والرثاء والوصف ولكنه لا يحسن الغزل والتعبير عن الحب ووصف العواطف الجائشة الموارة ، وأبو تمام تنقصه الطلاقة والتدفق وإرسال النفس على سجيتها ، ولذا كان لا يجيد الغزل إلا فى الفلتات النادرة ، وفى اعتقادى أن من يقرأ باب الغزل فى ديوان أبى تمام قل أن يشعر فى خلال أبياته بنغمة الحب الصادق أو بأثر الوجد المقعد المقيم ، وأكثر هذا الباب فى ديوانه مقطوعات من الشعر تتفاوت طولا وقصراً ، وقوة وضعفاً يجرى فيها على التقاليد المتبعة ، ويردد فيها المعانى المطروقة ، فلا يحلق ولا يرتفع ، بل لعله فى بعضها يسف ويسخف ، ويخيل إلى أن أبا تمام بسمته الرزين ، ونظرته الهادئة ، ومنطقة المتئد ، ونفسه السمحة الكريمة ، وحسه المرهف ، كان أقدر على وصف عاطفة الصداقة وأعرف بها . فالحب عاطفة ثائرة غلابة لا يحتملها طبعه الهادئ ، ونفسه المطبوعة على التفكير والتروية ، وقد وصف الفيلسوف الألمانى القدير إدوارد فون هارتمان فى كتابه القيم « فلسفة اللاواعى » الفرق بين الحب والصداقة فقال : « الصديقان الحميمان مثل الحبيبين لا يستطيع أحدهما أن يعيش فى غيبة الآخر وكلاهما يقوم بتضحيات من أجل الآخر ، ولكن ما أبعد البون بين الحب والصداقة ، فالصداقة مثل أمسية من أماسى الخريف هادئة الألوان ، والحب كعاصفة هوجاء من عواصف الربيع الثائرة الرهيبة ، والصداقة مرحة طروب كآلهة الأولمب ، والحب صخب مثير للزوابع مثل المردة ، والصداقة واثقة

بنفسها راضية قانعة ، والحب يعانى الألم بين الأمل واليأس ، والصداقة تعرف حدودها ، والحب نزاع إلى اللانهاية ، يسمو به الأمل إلى سمائه المنيرة ، ويهبط به اليأس إلى قرارته المظلمة ، والصداقة توازن وتجاوب صاف رائق ، والحب صليل وحفيف غامض مبهم لا يدركه الوعى ، والصداقة معبد مشرق الجنبات ، والحب محفوف بالألغاز وغوامض الأسرار ، ولا ينسلخ عام إلا ويطرق مسامعنا أخبار عدة من حوادث الموت والانتحار والجنون الناشئ من الحب ، ولكننا لم نسمع يوماً أن رجلاً حاول الانتحار لخيبته فى الصداقة . وهذا يرينا أننا لسنا من الحب تلقاء مهزلة مضحكة ، وإنما نحن إزاء شيطان مريد لا يفتأ عن طلب الضحايا » .

وعند هارتمان أن الصداقة تستمد قوتها من العقل الواعى ، أما الحب فمصدر قوته ما وراء الوعى ، والوعى واليقظة والإمعان – أحياناً – فى التكلف والتحامل على النفس هى الصفات البارزة فى شعر أبى تمام . وليس غريباً بعد ذلك – فيما أرى – أن يكون هذا الرجل أقدر على وصف عاطفة الصداقة الهادئة الملائمة لطبعه ومزاجه منه على وصف الحب وثوراته العاصفة ونيرانه اللافحة ، وقد نرى مصداق ذلك فى هذه الأبيات البليغة المؤثرة التى ودع بها صديقه الشاعر المعروف على بن الجهم لما أراد السفر :

هى فرقة من صاحب لك ماجد ... فغدا إذابة كل دمع جامد
فافزع إلى ذخر الشؤون وعذبه ... فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد
وإذا فقدت أخاً فلم تفقد له ... دمعاً ولا صبراً فلست بفاقد
أعلى يا ابن الجهم إنك دفت لى ... سماً وجمراً فى الزلال البارد
لا تهلكن أبداً ولا تبعد فما ... أخلاقك الخضر الربى بأباعد
إن يكد مطرف الإخاء فإننا ... نغدو ونسرى فى إخاء تالد

أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد
ما أدعى لك جانباً من سؤدد إلا وأنت عليه أعدل شاهد

وكان أبو تمام يلوم نفسه ويعنفها إذا خطر له أن يلهو بمتعة يستأثر بها دون أصدقائه الذين ألف صحبتهم وحمد معاشرتهم ، وقد وصف شعوره هذا فى قوله :

طوتنى المنايا يوم ألهو بلذة وقد غاب عنى أحمد ومحمد
جزى الله أيام الفراق ملامة كما ليس يوم فى التفرق يحمد
إذا ما انقضى يوم بشوق مبرح أتى باشتياق فادح بعده غد
فلم يبق منى طول شوق إليهم سوى حسرات فى الحشا تتردد
خليلىّ ما أرتعت طرفى بهجة ولا انبسطت منى إلى لذة يد
ولا حلت عن عهدى الذى قد عهدتما فدوما على العهد الذى كنت أعهد
وإن تخلوا دونى بأنس ولذة فإنى بطول الشوق والبث مفرد

— وقد صور لنا أبو تمام مثلا أعلى للصديق فى قوله :

من لى بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم رد جوابه
وإذا طربت إلى المدام شربت من أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغى للحديث بقلبه وبسمعه ولعله أدرى به

ويروى أن الخليفة المأمون لما سمع هذا البيت قال إنه يرضى أن يقاسمه مثل هذا الصديق ملكه ونفوذه ! وكان أبو تمام لا يضن على أصدقائه بالاستفادة من جاهه ومكانته فى نفوس أعيان الأمة ودعائم الدولة ، وقد انتهز فرصة مدحه لسليمان بن وهب ليشفع فى رجل من أصدقائه ويزكيه ويشيد بفضله ، وقد أشار إلى ذلك فى أبيات تدل على ما كانت تفيض به نفسه من العطف على

أصدقائه ومناصرتهم والوفاء لهم ، ويقول فيها مخاطباً ممدوحه :

ذو الود منى وذو القربى بمنزلة ... وإخوتى أسوة عندى وإخوانى
لا تخلقن خلقى فيهم وقد سطعت ... نارى وجدد من حالى الجديدان
فى دهرى الأول المذموم أعرفهم ... فالآن أنكرهم فى دهرى الثانى ؟
عصابة جاورت آدابهم أدبى ... فهم وإن فرقوا فى الأرض جيرانى
أرواحنا من مكان واحد وغدت ... أبداننا بشآم أو خراسان
ورب نائى المغانى روحه أبداً ... لصيق روحى ودان ليس بالدانى

وقد كان أبو تمام – كما يروى لنا – يستطيع أن يحتمل فرقة الأحباب ، أما فرقة الإخوان والأصدقاء فكان يرق عنها احتماله :

فى فرقة الأحباب شغل شاغل ... والثكل صرفاً فرقة الإخوان

والرجل الذى يتعلق بأصدقائه هذا التعلق . ويبنى لهم هذا الوفاء ، ويؤثرهم على الأحباب ، ولا تطيب له متعة ولا تصفو له الحياة إلا معهم لا يستكثر عليه أن يجيد رثاء من يفجع فيه من الأصدقاء والإخوان . ومن رثائه الفاجع المؤثر لأحد أصدقائه قوله :

وقلت أخى قالوا أخ من قرابة ... فقلت نعم إن الشكول أقارب
نسيبى فى عزمى ورأيى ومذهبى ... وإن باعدتنا فى الأصول المناسب
مضى صاحبى واستخلف البث والأسى ... علىَّ فلى من ذا وهذاك صاحب
عجبت لصبرى بعده وهو ميت ... وقد كنت أبكيه دماً وهو غائب
على أنها الأيام قد صرن كلها ... عجائب حتى ليس فيها عجائب

والصديق فى رأى أبى تمام شىء كبير القيمة عظيم النفاسة ، ننعم فى ظلال مودته السابغة ونسير فى ضوء آرائه الثاقبة ، وقد عبر عن ذلك فى الأبيات التى

خاطب بها صديقه إسحق بن أبى ربعى :

يا عصمتى ومعولى وثمالى بل يا جنوبى غضة وشمالى
بل لأمتى ألقى بها حد القنا بل كوكبى أسرى به وهلالى
إنى أعدك معقلا ما مثله كهف ولا جبل من الأجبال
وأرى كتابك بالسلامة مغنياً عن كتب غيرك باللهى والمال

وكان المتنبى فى بعض قصائده يتلطف ويتظرف فيتحدث عن ممدوحيه كما يتحدث المحب عن حبيبه ، وقد غار مرة – كما يروى لنا – من الزجاجة حين جرت على شفتى الأمير أبى الحسين . أما أبو تمام فكان فى بعض الأوقات يخاطب الممدوحين كما يتحدث الصديق عن صديقه . من أمثلة ذلك قوله فى مدح إسماعيل بن شهاب :

يا أبا القاسم المقسم ما بين شغاف مثاله وصفاق
لو تطلعت فى صميمى إذا نا جاك بين الحشا وبين التراق
وشجت بيننا . الأخوة إن الود عرق زاك من الأعراق
ذاك خل حرصت جهدك فلم أحـ ـص انتفاعى بقربه وارتفاق

وهكذا كان أبو تمام يؤمن بالصداقة ويود المزيد منها ، فإذا حل ببلد لم يجد فيه صديقاً ساورته الهموم ، وأحس الغربة ، وشعر بوحشتها ، مثل قوله لما حل بنيسابور :

صريع هوى تغاديه الهموم بنيسابور ليس له حميم

أما المتنبى فقد شك فى الصداقة وأنكرها فى قوله :

صديقك أنت لا من قلت خلى وإن كثر التجمل والكلام

وقد كان المتنبى رجلاً جافى الطبع ، غليظ القلب ، شديد الأثرة ، ولذا لم

يحسن فن الغزل ، ولم يعرف الحب الخالص ، ولا الصداقة الصافية . وكانت فى أبى تمام ناحية إنسانية ملحوظة ودماثة فى الأخلاق ، ورقة فى الطباع ، يسرت له أن يكون صديقاً وفيًّا ، وخلاً محبوباً ، ولذا أجاد فى هذا الباب الذى يسميه نقاد العرب « الإخوانيات » .